

يرتاب مبصرو لا أعمى ، ويبطل ما هو باطل ويحق الذى هو حق .
وتكلم أبو على فقال : كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد^(١)
في بغداد فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن شيخ الرى والجبال
في وقته^(٢) يقول فيه : لا أذاقك الله طعم نفسك فانك إن
ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً . قال : فجعلت أفكر في طعم
النفس ما هو وجاءني ما لم أرضه من الرأى حتى سمعت بخبر
بُنان رحمه الله مع احمد بن طولون أمير مصر ، فهو الذى كان
سبب قدومى إلى هنا لأرى الشيخ أو صحبه وأنتفع به .

والبلد الذى ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس
الكاملة والأخلاق الإلهية ، هو في الجهل كالبلد الذى ليس
فيه كتاب من الكتب ألينة ، وإن كان كل أهله علماء ، وإن
كان في كل محلة منه مدرسة ، وفي كل دار من دور خزانة
كتب ، فلا تغنى هذه الكتب عن الرجال ، فأنما هي صواب
أو خطأ ينتهى إلى العقل ، ولكن الرجل الكامل صواب
ينتهى إلى الروح ، وهو في تأثيره على الناس أقوى من العلم
إذ هو تفسير الحقائق في العمل الواقع وحياتها عاملة "مرئية"
داعية إلى نفسها . ولو أقام الناس عشرين يتناظرون في معاني
الفضائل ووسائلها ووضعوا في ذلك مائة كتاب ، ثم رأوا
رجلاً فاضلاً بأصدق معاني الفضيلة وخالطوه وصحبوه . لكان
الرجل وحده أكبر فائدة من تلك المناظرة وأجدى على
الناس منها وأدلى على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب .
ولهذا يرسل الله النبي مع كل كتاب منزل ليعطى الكلمة قوة
وجودها ، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول ، وينشئ
الفضائل الإنسانية على طريقة النسل من إنسانها الكبير .

وما مثل الكتاب يتعلم المرء منه حقائق الأخلاق العالية ،
إلا كوضع الإنسان يده تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض ،
فقد أنشأ يعمل ولكنه لن يرتفع . ومن ذلك كان شر الناس
هم العلماء والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم دروساً أخرى تعمل
عمالاً آخر غير الكلام ؛ فإن أحدهم ليجلس مجلس المعلم ثم
تكون حوله رذائله تعلم تعليماً آخر من حيث يدرى ولا يدرى ،
ويكون كتاب الله مع الإنسان الظاهر منه وكتاب الشيطان
مع الإنسان الخفى فيه

الأسد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلس أبو على أحمد بن محمد الرؤف بآدى البغدادي^(١)
في مجلس وعظه بمصر بعد وفاة شيخه أبى الحسن بُنان الخمال
الزاهد الواسطي شيخ الديار المصرية^(٢) وكان يضرب المثل
بعبادته وزهده ، وقد خرج أكثر أهل مصر في جنازته فكان
يومه يوماً كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا ؛ ما بقى
أحد إلا اقتنع أنه في شہوات الحياة وأباطيلها كالأعمى في سوره
تميزه بين لون التراب ولون الدقيق ، إذ ينظر كل امرئ في
مصالحه ومنافعه مثل هذه النظرة باللس لا بالبصر ، وبالتوهم
لا بالتحقيق ، وعلى دليل نفسه في الشيء لا على دليل الشيء في
نفسه ، وبالإدراك من جهة واحدة دون الإدراك من كل جهة ؛
ثم يأتى الموت فيكون كالماء صُبَّ على الدقيق والتراب جميعاً فلا

(١) توفى سنة ٢٢٢ (٢) توفى سنة ٢١٦

النجاح أن كل إنسان له أكثر من شخصية واحدة وإن كان
لا يدري ذلك .

ويثقل على نفسى خاطر واحد يكاد يصدنى عن المواظبة ،
هو ما جدوى ذلك كله ؟ . ما آخر هذا العناء الذى أراه
باطلاً ؟ . آخر ذلك كله معروف . وهل هم من آخر سوى
الفناء ؟ . ولكنى أعود فأقول لنفسى إن هذا الآخر لا آخر
سواه ، سواء أبذل المرء الجهد ، أم قعد عنه ورضى به ، فلا
فائدة من التفتير ، ولا ضير من السعى . والحياة أن تحيا ،
لا أن تجمد وتركد وتأسن . أما الجدوى فلماذا أعذب نفسى
بالسؤال عنها ؟ وما جدوى أى شيء في الحياة ؟ . إن كل
ما أعرفه أنى موجود ، وأنى وهبت قدرة على الاحساس
والتفكير ، فكيف أعطل هذه المواهب وأبطل عليها ؟ .
وكيف يمكن أن أنعم بالوجود وأمتنع بالشعور به وأنا أعطل
ما أعطيت ؟ ويعرف الجدوى من أعطاني الحياة ، فلندع ذلك
له فهو أعرف به .

ابراهيم حيدر القادر المازني

خذ الحلوى فأطعمها صديانك لا أذاقنا الله طعم أنفسنا فيما نشتهي . ثم إنه التفت إلى وقال لو أن شجرة اشتمت غير مابه صحة وجودها وكال منفعتها فأذيقنا طعم نفسها ، لأكلت نفسها وذوت

قال أبو علي : والمعجزات التي تحدث للأنبياء والكرامات التي تكون للآتقياء ، وما يخرق العادة ويخرج عن النسق ، كل ذلك كقول القدرة عن الرجل الشاذ : هو هذا . فلم تبق لي حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، وكنت كأني أرى بعيني رأسي كل ما سمعت ، بيد أني لم أنصرف حتى لقيت أبا جعفر القاضي أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ^(١) ذاك الذي يحدث بكتب أبيه كلها من حفظه وهي واحد وعشرون مصنفا فيها الكبير والصغير . فقال لي : لعلك اشتفيت من خبر بنان مع ابن طولون فن أجله زعمت - جئت إلى مصر . قلت : إنه تواضع فلم يخبرني وهبته فلم أسأله . قال : تعال أحدثك الحديث .

كان أحمد بن طولون ^(٢) من جارية تركية وكان طولون أبوه ملوكا حمله نوح بن أسد عامل بخاري إلى المأمون فيما كان موظفا بحمله من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك . فولد أحمد في منصب ذلة تستظهر بالطغيان ، وكانت هاتان طبيعته إلى آخر عمره ، فذهب بهمة مذهبا بعيدا ، ونشأ من أول أمره على أن يتم هذا النقص ويكون أكبر من أصله ، فطلب الفروسية والعلم والحديث ، وصحب الزهاد وأهل الورع ، وتميز على الأتراك وطمح إلى المعالي ، وظل يرمى بنفسه وهو في ذلك يكبر ولا يزال يكبر كأنما يريد أن ينقطع من أصله ويلتحق بالأمراء ، فلما التحق بهم ظل يكبر ليلحق بالملوك ، فلما بلغ هؤلاء كانت نيته على ما يعلم الله

قال : وكان عقله من أثر طبيعته كالعقلين لرجلين مختلفين فله يد مع الملائكة وبده الأخرى مع الشياطين ، فهو الذي بنى المارستان وأنفق عليه وأقام فيه الأطباء وشرط إذا جئ بالليل أن تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان ، ثم يابس

(١) توفي سنة ٢٢٢

(٢) كانت إمارة ابن طولون نحو ٢٦ سنة وتوفي سنة ١٢٠

قال أبو علي : وقدمت إلى مصر لأرى أبا الحسن وآخذ وأحقق ما سمعت من خبره مع ابن طولون . فلما لقيته لقيت رجلا من تلاميذ شيخنا الجنيد يتلألا فيه نوره ويعمل فيه سره ؛ وهما كالشمعة والشمعة في الضوء وإن صغرت واحدة وكبرت واحدة . وعلامة الرجل من هؤلاء أن يعمل وجوده فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه ، كأن بين الأرواح وبينه نسباً شابكا ، فله معنى أبوة الأب في أبنائه لا يراه من يراه منهم إلا أحسن أنه شخصه الأكبر . فهذا هو الذي تكون فيه الكلمة الإنسانية للناس وكأنه مخلوق خاصة لاثبات أن غير المستطاع مستطاع .

ومن عجيب حكمة الله أن الأمراض الشديدة تعمل بالعدوى فيمن قاربها أو لامسها ، وأن القوى الشديدة تعمل كذلك بالعدوى فيمن اتصل بها أو صاحبها ، ولهذا يخلق الله الصالحين ويجعل التقوى فيهم إصابة كإصابة المرض تصرف عن شهوات الدنيا كما يصرف المرض عنها ، وتكسر النفس كما يكسرها ذاك ، وتفقد الشيء ما هو به شيء ، فتحول قيمته . فلا يكون بما فيه من الوهم بل بما فيه من الحق .

وإذا عدم الناس هذا الرجل الذي يهديهم بقوته العجيبة فقلما يصلحون للقوة ، فكبار الصالحين وكبار الزعماء وكبار القواد ، وكبار الشجعان ، وكبار العلماء وأمثالهم ؛ كل هؤلاء من باب واحد ، وكلهم في الحكمة ككبار المرضى

قال أبو علي : وسمعت مرة أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون فقطمتني هيئته ، فقلت أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ الرى : لا أذاقك الله طعم نفسك . وبينما أهيء في نفسي كلاما أجرى فيه هذه العبارة ، جاء رجل فقال للشيخ : لي على فلان مائة دينار وقد ذهبت الوثيقة التي كتب فيها الدين وأخشى أن ينكر إذا هو علم بضائعها ؛ فادع الله لي وله أن يظفرني بديني وأن يثبتني على الحق . فقال الشيخ : إني رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى ، فاذهب فاشتر لي رطلا منها وأمتني به حتى أدعوك .

فذهب الرجل فاشترى الحلوى ووضعها له البائع في ورقة فإذا هي الوثيقة الضائعة . وجاء إلى الشيخ فأخبره ، فقال له :

قد خرفت؛ ثم حبسه وقيدته وأخذ منه جميع عطاياه مدة ولايته القضاء فكانت عشرة آلاف دينار؛ قيل إنها وجدت في بيت بكار بختها لم يمسا زهداً وتورعا
ولما ذهب شيخك أبو الحسن يعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر طاش عقله فأمر بالقائه إلى الأسد، وهو الخبر الذي طار في الدنيا حتى بلغك في بغداد

قال: وكنت حاضر أمرهم ذلك اليوم، فجيء بالأسد من قصر ابنه خمارويه. وكان هذا خمارويه مشغولاً بالصيد لا يكاد يسمع بسبع في غيضة أو بطن واد إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم فيضعونه في أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم

وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم، جسيماً، ضارياً، عارم الوحشية، متزيل العضل، شديد عصب الخلق، هراساً، فراساً، أهرت الشدق، يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ينبئ أن جوفه مقبرة، ويظهر وجهه خارجاً من لبدته، بهم أن يتقذف على من يراه فيأكله.

وأجلسوا الشيخ في قاعة وأشرفوا عليه ينظرون، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه، فجذبوه فارتفع؛ وهجهجوا بالأسد يزجرونه فانطلق يزجر ويزار زئيراً تنشق له المرائر ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراه الصاعقة.

ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعر؛ ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة، فابقى من أجل الشيخ إلا طرفه عين. ورأياه على ذلك ساكناً مطرقاً لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به، وما منا إلا من كاد ينهك حجاب قلبه من الفرع والرعب والاشفاق على الرجل.

ولم يرعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته فألقى على ذنبه ثم لصق بالأرض هنيئة يفترش ذراعيه، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد، فثنى مترقفاً ثقيل الخطو تسمع لمفاصله قعقة من شدته وجسامته، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذي يأنس به، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصالوة بين الرجل

ثياباً ويفرش له ويفدى عليه ويراح بالادوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، ولم يكن هذا قبل إمارته. وهو أول من نظر في المظالم من أمراء مصر. وهو صاحب يوم الصدقة، يكثر من صدقاته كلها كثر نعمته الله عليه، ومراتبه لذلك في كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم في داره وغيرها، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس. ولكل مسكين أربعة أرغفة يكون في اثنين منها فالزوج^(١) وفي الآخرين من القدور، وينادي من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر. وتفتح الأبواب ويدخل الناس وهو في المجلس ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته. وكان راتب مطبخه في كل يوم ألف دينار، واقتدى به ابنه خمارويه، فأنشأ بعده مطبخ العامة^(٢) ينفق عليه ثلاثة وعشرين ألف دينار، كل شهر وقد بلغ ما أرسله ابن طولون إلى فقراء بغداد وعلماؤها في مدة ولايته ألفي ألف ومائتي ألف دينار^(٣) وكان كثير التلاوة للقرآن، وقد اتخذ حجرة بقر في القصر وضع فيها رجالاً ساهم بالمكبرين، يتعاقبون الليل نوباً، يكبرون ويسبحون، ويحمدون، ويهللون، ويقرأون القرآن تطريباً وينشدون قصائد الزهد، ويؤذنون أوقات الأذان، وهو الذي فتح انطاكية في سنة خمس وستين ومائتين ثم مضى إلى طرسوس كأنه يريد فتحها، فلما نابذه أهلها وقتلهم، أمر أصحابه أن ينهزموا عنها ليلج ذلك طاغية الروم، فيعلم أن جيوش ابن طولون على كثرتها وشدتها لم تقم لأهل طرسوس فيكون بهذا كأنه قاتله وصدده عن بلد من بلاد الاسلام ويجعل هذا الخبر كالجيش في تلك الناحية

ومع كل ذلك فانه كان رجلاً طائش السيف يحور ويعسف وقد أحصى من قتلهم صبراً أرماتوا في سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفاً. وأمر بسجن قاضيا بكار بن قتيبة في حادثة معروفة وقال له: غرك قول الناس ما في الدنيا مثل بكار؟ أنت شيخ

(١) نوع من الخلول وهو ما يسميه العامة (البالوظة)

(٢) هذا هو المال في مطعم الشعب

(٣) الدينار نصف جنيه مصري نفقة ذلك مليون ومائة ألف جنيه، صدقاته على بغداد وحدها ورحه الله

القاهرة المعزية

وجوب الاحتفاء بعيدها الألفى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ أعوام قلائل احتفلت فرنسا بذكرى إحدى مدنها العتيقة، وهي مدينة قرشونة (كاركاسون) الرومانية لمناسبة مضى ألفى عام على قيامها؛ ومازلنا نذكرها أفاضت به الأنباء يومئذ طراقة هذا الاحتفال وروعته وأهميته من الوجهة القومية. وقرشونة إحدى مدن ولاية سبتيمانيا السبعة، وقد كانت مدى حين معقلا إسلاميا في جنوب فرنسا؛ وما زالت على صغرها وتواضعها شهيرة بآثارها الرومانية وتاريخها الخافل آياه الرومان والقوط والعرب

وإن مصر لتستطيع أن تفخر بمدنها الألفية عنوان تراث مجيد وحضارة خالدة؛ ويكفي أن نذكر في هذا المقام عاصمتها الجليلتين، الإسكندرية ثغرها العظيم الثالث، والقاهرة عروس العواصم الإسلامية؛ فقد قطعت الإسكندرية من عمرها المديد أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا؛ وأشرفت القاهرة على ألفها؛ وإذا كانت العاصمة الكبرى تقترب من عيدها الألفى بخطى سريعة فإن من بواعث الأسف أن يقترب هذا اليوم التاريخي العظيم دون أن تتأهب مصر للاحتفاء به واحاطته بما يجب من ضروب الاشادة والتكريم؛ ومن بواعث الأسف ألا يرتفع حتى اليوم صوت رسمي ينبه إلى هذا الحادث القومي الجليل، وينوه بخطورته وأهميته، ويدعو المختصين إلى الاهتمام بأمره

ولقد احتفلت مصر بالأمس بالعيد المئوي لوزارة معارفها، واحتفلت من قبل بالعيد المئوي لمدرسة الطب، والعيد المئوي للمدرسة الخديوية، والعيد الخمسيني لإنشاء المحاكم الأهلية، وغيرها من المواقف والحوادث القومية، وأدركت ما وراء الاحتفاء بهذه المناسبات التاريخية من بحث للباضى، وتكريم للذكريات المحيطة، وإذكاء للعاطفة القومية، ووصل بين

التقى والأسد، ولكنهما بارزين إرادة ابن طولون وإرادة الله. وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الأذى عمل، ولم يكن منه بازاء لحم ودم، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل في روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة، ولا يسرى فيه إلا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى التي هو مؤمن بها ومتوكل عليها كحياة الدودة والفلة، وما دونها من الهوام والذر.

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى، فهو ليس بين يدي الأسد ولكنه هو والأسد بين يدي الله، وكان مندجاً في يقين هذه الآية: «واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا»

ورأى الأسد رجلاً هو خوف الله، يخاف منه، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية، فليس في الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة، ومن ذلك ليس في الأسد ذك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة.

ونسى الشيخ نفسه فكأنما رأى الأسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التي ياكلها، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه في تلك الساعة أو اختلجت في نفسه خالجة من الشك، لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد فتمزق في أنيابه ومخالبه

قال: وانصرفنا عن النظر في السبع إلى النظر في وجه الشيخ فإذا هو ساهم مفكر، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظناً في تفكيره، فن قائل أنه الخوف أذهله عن نفسه، وقائل إنه الانصراف يعقله إلى الموت، وثالث يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب، وزعم جماعة أن هذه حاله من الاستغراق يسحر بها الأسد. وأكثرتنا في ذلك وتجارتنا فيه حتى سأله ابن طولون: ما الذي كان في قلبك وفيم كنت تفكر؟

فقال الشيخ: لم يكن على بأس، وإنما كنت أفكر في لعب الأسد أهو طاهر أم نجس.....

بمنه

(خطا)